محاولات في درس جبران

الجوهر الفرد

في ادب جبران خليل جبران

بقلم امين خالد

٢

عدم الاكتراث للاخلاق

اللذة والواجب — التوبة — الشهوة القصوى

منذ الآن نقول ان كتابات جبران مهما كان بها من الفن عناصر قيمة، لان موضوعها — وهو الحب — من غرائز الانسان الاساسية ان لم نقل راس الغرائز؛ وجبران يجعل من هذا الحب في اثاره الفنية ميزةً بارزة بالنسبة الى باقي العناصر التي يتطرق اليها في كتابته ؛ نقول ان تغلب الحب الغريزي الاصلي في اهم مؤلفات جبران بل في ادبه بوجه الاجمال — وان كان ضرورياً للفن — فهو غير كافٍ لخلود شيء من هذه المؤلفات على مدى السنين ، لانه ينقصها ركن مهم من اركان البناء الفني وهو عنصر الافضلية الاخلاقية.

نعم سيذكر تاريخ الآداب العربية احداث جبران طريقته الجديدة بالانشاء. وهي الاسلوب الوجداني الذي يمثل نبضات قلب الكاتب في مدها وجزرها مع الابداع في الخيال . ولكن آثار جبران لا تستطيع ان تلتحق بالآثار المدرسية الخالدة فيستظهرها المتأدبون كما يرتلها الانكلوسكسون اليوم ، على ما قيل ، في هياكلهم واندیتهم. ذلك لان سرّ هذا الترتيل قائم بموافقة المؤلفات الجبرانية لروح العصر الحاضر ؟ وان بهجة الادب الجبراني ستضمحل بتطور الروح العصرية الى شكل آخر في الطباع والامزجة المكتسبة من البيئة المتغيرة مع طوارئ الايام.

قد يكون في بعض الآثار المدرسية شيء من التهجم على الاخلاق والتجرؤ على فضيلة الحياء والحصانة . على ان في كلها روحاً تدلّ على الخشية الاخلاقية الجوهرية ، والترفع جهد المستطاع عن الاستسلام للشهوة المحرّمة ، مع الندم والتوبة على اثر السقوط ...

ان سحر الحرب الداخلية بين الرغبة والواجب لا وجود له في ادب جبران مع انه يجب ان يكون منارة يسترشد بهديها كل اديب . ولكن يجب ان لا ننسى ان جبران مصوّر الاجسام العارية ، وكاتب الشهوة المطلقة من كل قيد، لا عبرة عنده للعقل والواجب حتى يصطدم الهوى بذلك الواجب المصدّى ، على زعمه ، الذي نسجته يد التقاليد البالية على منوال العصور المظلمة.

ليس في موسيقى الادب الجبراني سوى طبول تدوي عند قرع اصواتها ، وتذيع ضجّة البلاغة اللفظية والكلام الطنّان الذي يؤثر بالاذن تأثيراً قوياً ، وينتقل بالانسان الى عالم الدوخة والانذهال ؛ ولا وجود للانغام العميقة المركبة في كثرة النغمات المتشاحنة حيث تبرز واحدة من هذه النغمات وتتغلب على غيرها تغلباً اخلاقياً ، كما نرى مثلاً عند ارباب العصور المدرسية في جميع الآداب كراسين وكورنيل وشكسبير ومن اليهم.

فجبران فرح طروب بالاتصال الجسدي ولذلك يغبط علي الحسيني عندما «عانق حبيبته ...

وهو معجب بتصرّف وردة الهاني عندما تركت زوجها الشرعي واتبعت حبيب قلبها ، ولو ضحّت في فعلتها هذه بكيان رشيد نعمان المعنوي وتركته بين مخالب التعاسة.

وهو شفيق رؤوف بمرتا البانيّة لا يرى نكراً بضعف ارادتها واستسلامها المهين الى خادعها المتفرس.

اجل ! ان نفسيّة جبران وان تكن عميقة في غورها ، فهي بسيطة في دهاليزها ومتشعباتها . فكل ما عند جبران انعطاف على التعس ولكن هذا الانعطاف يشمل ايضاً المجرم الحاني فهو يرغب لهذا المجرم راحةً تامّة في الوجدان دون ان يبقى في خلايا نفسه شيء من الشعور بغير السعادة. ولنفتح « السابق »

لنرى من هو القديس في نظر جبران الكهل :

القديس

زرت في حداثتي قديساً في صومعته الهادئة القائمة بين التلال؛ وفيما كنا نبحث ماهية الفضيلة اطلّ علينا لصٌّ وهو يتمرّج على الجانبين فوق الروابي والتعب قد اعياه . وعندما وصل الى الصومعة جثا على ركبتيه امام القديس وقال له : « ايها القديس الشفيق ، قد جئتك طالباً تعزيةً ، فان آثامي قد تعالت فوق رأسي »

فاجابه القديس قائلاً : « يا ابني ، ان آثامي انا ايضاً قد تعالت فوق رأسي »

فقال له اللص : « عفوك يا سيدي فانا سارق وقاطع طريق ويستحيل ان تكون مثلي »

فاجابه القديس : « انك واهم يا ابني فانني بالحقيقة مثلك سارق وقاطع طريق »

فقال له اللص : « ماذا تقول يا سيدي ؟ فانا قاتل ودماء الكثيرين من الناس تصرخ في اذني »

فاجابه القديس قائلاً : « وانا ايضاً قاتل يا ابني ، وفي اذني تصرخ دماء الكثيرين »

فقال له اللص : « يا سيدي انا قد ارتكبت شروراً لا تحصى وجرائم لا عداد لها فكيف تساوي نفسك بي وانت رجل الله البار »

فاجابه القديس وقال : « لو انك عرفت كثرة شروري لما ذكرت شرورك »

فانتصب اللص إذ ذاك ، وحدّق بالقديس طويلاً وملأ عينيه دهشة وغرابة ، ومضى من غير ان ينبث ببنت شفة .

اما انا فكنتُ صامتاً الى تلك الدقيقة . فالتفت آنئذ الى القديس وسألته قائلاً : « ماداعاك الى ان تنسب لنفسك شروراً لم ترتكبها قط يا سيدي ؟ ألا ترى ان هذا الرجل قد مضى ولم يعد بعد من المصدقين بدعوتك والمؤمنين بشارتك ؟ »

فاجاب القديس وقال : « اجل يا ابني فانك بالصواب حكمت بانه لم يعد بعد من المصدقين بدعوتي ولكن الحق اقول لك انه قد انصرف والنزاع يملأ فؤاده »

وفي تلك اللحظة سمعنا اللصّ يغني من بعيد وكانت الاودية تردد صدى صوته المحتفل بالمسرة والتعزية . (١

وهكذا فالرغبة هي حاملة لواء النصر والطرب دون ان يحمي وطيس المعركة بينها وبين الواجب .

ولكن ، اليس في هذه المناصرة لكل قلب بشري على الاطلاق حتى قلوب اللصوص والمجرمين ، اغراق بالتسليم لسلطان الميل والهوى ؟

---

١) السابق ، ص ٢٩ و ٣٠ و ٣١

او يفرق قلب هذا القديس ، قديس النضج الجبراني ، عن رفش « حفار القبور » في تهديم النظام العام ؟

هذا هو جبران المتطرف الذي يسكب السمّ الاخلاقي « في كؤوس نظيفة شفافة » كما يجاهر بقاله « المخدّرات والمباضع » ، ولا يبالي. فلنكن جبرانيين ، ولكن لا اكثر من جبران نفسه . واذا كان هو يصرّح بمكنونات نفسه بحرية ، فلا لزوم لتغاضينا عن مساوئه في سبيل احترامه وتقديسه.

واذا رأينا الفساد في جبران الفنّان او جبران الفيلسوف الرواقي الذي نزع من تعاليم ابيقوروس ما كان بها من المنطق النظري في الاعتدال باللذة وتحكيم العقل في تنظيمها وترتيب الشهوات والاستفادة من خدمات الهيئة الاجتماعية بقدر الامكان اتماماً لهذه اللذة ، اذا رأينا كل هذا الفساد يجب ان نعرفه بماهيته، لا ان نذلّل نفوسنا بحمله على محمل الروحية العميقة او الانسانية التامة، لان جبران لا يرضى بذلك.

اننا اذا عرفنا ان اعظم كتاب الغرب في موضوع الميول القلبية والشهوة النسائية وتكريسها لم يبلغوا من الفساد الاخلاقي والاباحية ما بلغه الادب الجبراني احجمنا عن المحاباة والقول ان في ادب جبران اخلاقاً سامية وروحية بعيدة.

فاناطول فرانس دافع عن تايس التي قضت معظم حياتها بالفجور والدعارة واستعطف القلوب اليها لانها لم تضحِّ باحد ولا كانت مجرمة في اعماق نفسها، بل ختمت حياتها بالتوبة والتكفير بخلاف بافنوس الذي تجسّمت فيه الشهوة الجسدية فانتهى مرذولاً بينما كانت نفس تايس تتصاعد الى السماء.

التوبة ، وهي الانفعال النفساني العميق عند من ينعم النظر في اجترامه ويعود ويكفّر عن سيّئاته فيمتنع الفضيلة بكل ما فيه من شدة الحاجة الى ذلك ، هذه التوبة شيء بارد وسخيف في نظر جبران الذي لا يأبه لها الا بالسخرية .

وهاك مثله عن التوبة في « السابق » :

التوبة

« دخل رجل في ليلة ظلماء الى حديقة رجل فسرق اكبر بطيخة وصلت اليها يده وحملها وجاء بها الى بيته.

وعندما كسرها وجد انها عجراء لم تبلغ بعد نموّها.

فتحرّك ضميره في داخله اذ ذاك وارسله تأنيباً.

فندم على انه سرق البطيخة » (١)

ولكن جبران لا يحتاج الى التوبة لان الاجترام منفي بنظره ولذلك فكل ما مالت اليه النفس محلّل مباح.

وعلى كل حال فالتوبة هي المزيّة الاخلاقيّة التي تجعل تايس اشرف من مرتا البانيّة.

وغوستاف فلوبير شرح بتبسط دقيق واسهاب تام تدلّه مدام بوڤاري التي خانت زوجها الشرعي وتبعت العشّاق الواحد تلو الاخر. فاحالته النيابة العامّة الى القضاء. لانه كتب في هذه الرواية ما من شأنه تخديش الفضيلة وافساد الاخلاق العامة وكان ذلك في منتصف القرن التاسع عشر، في فرنسة، وبعد الثورة الكبرى بعشرات السنين، بل وبعد شيوع ادب الرومانتيك ... ففي هذه الظروف حوكم في باريس غوستاف فلوبير؛ ولولا دفاع محاميه وبلاغته لناله الجزاء الصارم.

اجل! اثبت المحامي واعترف القضاة ان في رواية مدام بوڤاري حقيقة اخلاقية مهمة وهي ان النهاية والنتائج التي اوصلتها اليها حياة العشق لم تورثها سوى اضطراب القلب وتوبيخ الضمير والبؤس والهوان،وان هذا ينفر المرأة التي تطالع مدام بوڤاري من ان تقتدي بها لان « اعقل الناس من ينظر للعواقب ». ولولا اعتبار هذه النقطة الجوهرية لما نجا فلوبير ولا طابع كتابه.

وڤيكتور مارغريت الذي نزعت الحكومة الفرنساوية منه نيشان جوقة الشرف، وكان قد ناله في ساحة الحرب الكبرى، فاستطته من هذا الحقّ لانه شرح مواقع الاستسلام الى الشهوة الحيوانية والتهتّك باسلوبه الحقيقي في

(١) السابق، ص ٦٢

كتابه « لاكارسون » مع ان ما قيل في « مدام بوڤاري » قد يصح في « مونيك لربيه » التي يحذّر ما لقيته في نهاية ايامها ، بل في كل دقيقة من حياتها من الغم والشقاء ؛ فينذر كل فتاة تطمع في الخلاعة الحرّة والتخلّص من قيود الزواج والشريعة لان قلبها او جسدها يتطلبان ذلك ؛ فترتدع وتكبح من شهوة هذا الجسد .

في باريس ، حوكم فلوبير ، وحُرم فيكتور مرغريت النيشان ، لانهما سكبا سمًّا اخلاقيًا في كاس الفن ، مع انهما يدّعيان ان دسم ذلك الكاس بلسم اخلاقي محض يعود على الفضيلة بالاثر الطيب . ونحن اذا قلنا ان في كتابات جبران فسادًا اخلاقيًا ظاهرًا للشرح والتحليل قالوا : « لكل نبي كرامة الا في وطنه ! وما ألأمهم قومًا يجدّفون على نوابغهم ! »

فلنلقِ الآن نظرة سريعة على ابطال العشق والتهتك في ادب جبران ، ونبدأ بشخصه وشخص سلمى كرامه التي كان يجتمع بها في جنينة الباشا ، كما اشرنا الى ذلك ، دون « ان يخافا عين الرقيب او يشعرا بوخز الضمير . » اضف الى هذه الاباحية تلك الاوصاف الشهوانية المبثّة في كثير من صفحات « الاجنحة المتكسرة » ، مما نترفّع عن نقله ، وعما يفوق تدقيقًا وتطرّفًا وحرية اوصاف فيكتور مرغريت في « لاكارسون » ، فيكون اشد خطرًا على الآداب والاخلاق ، اذ يعطي صاحبه المثل البارز في خرق النظام ، دون اقل تلميح الى الندم والتوبة .

قد يكون لسلمى كرامة اعذار في سلوك منصور بك غالب الذي يستحق المقابلة بالمثل ؛ او في استبداد عمه المطران بولس الذي استعمل نفوذه الديني حتى « طلّق » والدها فربطها بابن اخيه طمعًا بثروتها ؛ او في وفائها للحبيب الاول ، جبران ، الذي « عشق روحها » . وهنا نقول اننا لا نعلم هل تعبّر كلمة « روح » عن شيء في لغة جبران سوى رائحة الجسد ؛ ولكنّ لذلك شرحًا مقنعًا سيأتي في « آمنة الطوبّة » .

قلنا قد يكون لسلمى كرامه اعذار في مثل هذه المواضيع التي تطرّق اليها جبران في بعض مقالاته لانها ازعجت حلم سلمى . ولكن ما هي اعذار

وردة المانى التي ضحّت برشيد بك نعمان على هيكل غرورها وشهوتها ؟ ؟

قالت وردة المانى :

« كنت في الثامنة عشرة من عمري عندما قادني القدر الى رشيد بك نعمان وكان هو إذ ذاك قريباً من الاربعين فشغف بي ومال اليَّ ميلاً شريفاً كما يقول الناس . ثم جعلني زوجةً له وسيدة في منزله الفخم بين خدامه الكثيرين فالبسني الحرير وزيّن راسي وعنقي ومعصمي بالجواهر والحجارة الكريمة . وكان يرضيني كتحفة غريبة في منازل اصدقائه ومعارفه ويبتسم ابتسامة الفوز والانتصار عندما يرى عيون اترابه ناظرةً اليَّ باعجاب واستحسان ويرفع رأسه تيهاً وافتخاراً اذ يسمع نساء اصحابه يتكلمن عني بالاطراء والمودة . لكنه لم يكن يسمع قول السائل : « هذه زوجة رشيد بك ام هي صبية تبناها ؟ » وقول الآخر : « لو تزوج رشيد بك في زمن الشباب لكان بكره اكبر سناً من ورده المانى . »

« جرى كل ذلك قبل ان تستيقظ حياتي من سبات الحداثة العميق، وقبل ان توقد الالهية شعلة المحبة في قلبي ، وقبل ان تنبت بزور العواطف والاميال في صدري . نعم جرى كل ذلك عندما كنت احسب منتهى السعادة في ثوب جميل يزيد قامتي ومركبة فخمة تجرني ورياش ثمينة تحيط بي . ولكن عندما استيقظت – عندما استيقظت وفتّح النور اجفاني وشعرت بالنار المقدسة تلسع اضلعي وتحرقها – وبالمجاعة الروحية تقبض على نفسي فتوجعها . عندما استيقظت ورايت اجنحتي تتحرك يميناً وشمالاً وتريد النهوض بي الى سماء المحبة ثم ترتجف وترتخي عجزاً بجانب سلاسل الشريعة التي قيّدت جسدي قبل ان اعرف كنه تلك القيود ومفاد تلك الشريعة – عندما استيقظت وشعرت بهذه الاشياء عرفت بان سعادة المرأة ليست بمجد الرجل وسؤدده ولا بكرمه وحلمه بل بالحبّ الذي يضمُّ روحها الى روحه ويكسب عواطفها فى كبده ويجعلها ويجعله عضواً واحداً من جسم الحياة وكلمة واحدة على شفتي الله . »(١)

هذه هي وردة المانى تخطب بحماسة ثائرة . . .

ولكن ما هي حجتها على رشيد نعمان ؟ وبماذا ترى فيه نقصاً حيوياً لا يتفق مع حبها ؟

لم يكن رشيد نعمان فاسقاً ولا مستبداً ولا طامعاً بثروة . ولا كانت وردة مربوطة برجل قبله لا في روحها ولا في جسدها . انما كل ما بالامر فرق بين عمريهما ، وشهوة قويّة في جسدها وانانية متجسمة في شخصها الجبراني تقتال الاخضر واليابس وتشرب الكاس مع الثالة ولا ترتوي، غير عابئة بشيء حتى ولا بالساقي نفسه . لان وردة الثائرة على كل ما يماكسها في الهيئة الاجتماعية لا تتورّع بذكر الحبيب الذي مالت اليه ولا تعطي عنه غير هذا الايضاح «فتى

(١) الارواح المتمردة ، ص ٢٢ و٢٣ و٢٤

يسير وحده على سبل الحياة، ويعيش منفرداً بين اوراقه وكتبه في البيت الحقير، فلا يهتها منه الا كونه فتى ثم تصرخ بالملأ :

« هذه هي العقبة التي سرت عليها حتى بلغت قمّة سعادتي ولو جاء الموت واختطفني الان لوقفت روحي امام العرش الاعلى بلا خوف ولا وجل بل بفرح وامل وانحنت لفائف ضميري امام الديان الاعظم وبانت نقيّة كالثلج لانني لم افعل غير مشيئة النفس التي فصلها الله عن ذاته ولم اتبع غير نداء القلب وصدى اغاني الملائكة. » (١

قمة السعادة ... الفرح الاعظم ... نقاوة الضمير ... في مشيئة النفس ونداء القلب... هذه هي النبطة التامّة التي تجذب في ادب جبران نحو الاثنية الدامية وشهوة الجسد الفائرة.

هذه النبطة في اللذة التامّة هي التي تستميل المرء الى ان يضرب بالفضيلة عرض الحائط ، ويلتحق بجوّاء ذات الحلاوة الشهية.

لو اقتصر ابطال جبران على التفتيش عن شهواتهم دون مساس بحقوق غيرهم ، لهان الامر . فانه وان تكن شهوة مرتا البانية لم تذهب بسوى مرتا، وشهوة جبران وسلمى لم تقلق منصور غالب، فان شهوة وردة المافي قد سيّبت شقاء رشيد نعمان. ولكن ما اشد من كل ذلك وادهى شهوة « ليلى العروس » ذات الخنجر المغمد باحشاء حبيبها الشريف !

ليلى القاتلة الدامية بجور غيرتها ، وصغارة خبثها وحسدها ، وجبانة يأسها وانتحارها ، وبكلمة واحدة بدنايا انانيتها ، تحلل كل ذلك لنفسها لان قلبها يقضي بذلك.

اجل ! الانانيّة المجرّدة وشهوة التلذذ بجلادة المرأة العارية ! هذه هي النواة القلبية الواحدة التي انبتت الكرمة الجبرانية بورقها وعناقيدها والدبس الذي صنع من زبيبها.

هذه النواة الشهوانية بذاتها هي الجوهر الذي تحلله آمنة العاوية التي باحت باسرار « ارم ذات العماد » ، على ما سنرى في البحث القادم. (لها بقية)

(١ الارواح المتمرّدة ، ص ٢٦ و٢٧